من قتل سعيد الروينى

قبع" سعيد الروينى " فى أحد أركان حجرته المظلمة وقد جف عوده وذبل جسده وبهت لونه وظل جامدا فى مكانه لا يبدى حراكا بعد أن فقد الرغبة فى الحياة ، وأيقن أن مماته خير له من حياته وأخذ يتعجل ملك الموت أن يقبض روحه ويخلصه مما هو فيه ، وظل قابعا يتذكر سنوات عمره المنقضية منذ نعومة أظافره حتى لحظته تلك وما تخللها من أهوال وآلام .

تذكر عندما عاد والده المعلم روينى البغل " – ذلك الرجل تاجر الماشية فارع الطول منبسط العرض حاد الطباع والشبيه بثور الوسية وبمجرد أن رآه يقتحم المنزل اختبأ فى حجرة مهجورة بها بعض أدوات الفلاحة التى انتهى عمرها الافتراضي ولم تعد صالحة للاستعمال ، وظل مختبئا حتى استقر فى إحدى الحجرات وتسلل فارا بجلده إلى الحقل قبل أن يراه والده الذى يسئ معاملته رغم حداثة سنه فهو بالسنة النهائية بالمرحلة الابتدائية ، ورغم أنه الابن الوحيد الموجود بالمنزل بعد أن هجره ستة من أخوته يكبرونه جميعا ، ولم يكلف والده نفسه مشقة البحث عنهم وكأنه اكتفى به بالإضافة إلى شقيقته روايح التى تصغره بعامين .

ربّى المعلم روينى البغل " ابنه " سعيد كما يربى ماشيته متجاهلا الفرق بينهما .. فهو تارة يركله وتارة أخرى يصفعه على قفاه كلما رآه دون سبب معروف .. ودائما يسبه ويلعنه فى غير مبالاة .. وكلما توسلت الحاجة " نعيمة " –أم سعيد– إليه أن يحسن معاملته حتى لا يهجر المنزل نهرها وعنفها قائلا .

- دعينى أربى إبنى بطريقتى ياولية ياخرفانة أنتى .

وفى معظم الأحيان لم يكن المعلم " روينى البغل " يكتفى بذلك بل كان يكيل لها صفعات متواليه تتلقاها على وجهها " ولا تملك إلا أن تتجرع حزنها وهى ترمق وحيدها فى حسرة وترتكن الى الصمت وهى تتحسس مواضع الألم من جسدها .

كان المعلم " روينى البغل " يأمر ولده يتجنب كل البشر وعدم الاختلاط بهم بحجة خشيته عليه من حقدهم وحسدهم ، وان رفاقه الذين هم فى مثل سنه تحت وطأة العوز والحاجة سوف يفسدون أخلاقه ويجرونه الى عالم الانحراف والرذيلة ، وقفز إلى مخيلته ما كان يتلقاه من إهانات وصفعات فى كل مرة يضبطه فيها متلبسا بالحديث مع أقرانه أو الاختلاط بزملائه عند العودة من المدرسة .

ذات يوم تجرأت الحاجة " نعيمة " عندما رأت السعادة تلقى بظلالها على وجه زوجها وابتسامة خفيفة تقترب من ثغره فانتهزت الفرصة التى ربما لا تسنح مرة أخرى واقتربت منه فى دلال قائلة :-

- سعيد " ابنك محتاج حذاء جديد يا معلم"
- زم المعلم " روينى " شفتيه وهربت الابتسامة التى
- كانت

مرسومة على ثغرة ، وتلاشت السعادة التى كانت

بادية "
وقطب جبينه ورد فى ضيق:
- أليس عنده حذاء يا امرأة ؟
- تمزق يا معلم .
ثم ازدردت ريقها واستطردت :
دا من سنتين ياخويه .. أديله ييجى أربع سنين فى رجله .
ثار المعلم " روينى " لجرأة زوجته وتطاولها غير المعهود وأراد أن ينهى الحديث فصرخ قائلا :
يلبس حذاء أخته ومش مهم هى تلبس .. وارحميني بقى شوية من طلباتك اللى مابتنتهيش دى
البنوتة أهه ، أهه .. البنوتة ، أهه ، أهه.

بتلك الكلمات الساخرة استقبل تلاميذ مدرسة المستقبل الإعدادية زميلهم " سعيد " فبمجرد أن رآه أحدهم مرتديا حذاء الجنس الآخر زف الخبر للجميع فالتفوا من حوله مرددين هتافاتهم الجارحة ، ولم يقو " سعيد " على صدهم فانزوى جانبا ووقف يبكى نادبا حظه ولكنهم لم ينصرفوا وواصلوا هتافهم الى أن أنقذه الأستاذ " حامد أبو رية" مدرس العلوم بالمدرسة الذى نهرهم فانفضوا من حوله ، واصطحبه الى مكتب الأستاذ " راضى أبو العزايم مدير المدرسة وسرد عليه ما حدث ، فقرر استدعاء " روينى البغل " ولاسيما عندما بدا خجل " سعيد " الواضح وذكاء المتقد الذى أتضح من خلال ردوده.

تردد " سلامة الفراش عدة مرات على منزل " روينى البغل " ولكنه فى كل مرة يعود ليخبر مدير المدرسة أنه فى سوق الماشية ،

وظل يتردد عليه حتى صادفه مره فى أحد شوارع القرية فأسرع اليه يطلب منه الحضور الى المدرسة فنهره فى امتعاض قائلا :-
- قول للمدير بتاعك مش فاضى " معندوش وقت للكلام الفارغ ده.
ظن المعلم " روينى " أن ابنه قد شكا حاله لمدير المدرسة ، وبمجرد أن علم بوجوده بالمنزل يستذكر دروسه وبرفقته زميله " وليد عبد الله " أسرع إليه وانهال عليه ضربا وسبا وأمر " وليد أن يلملم أوراقه وينصرف إلي غير رجعة .

عندما التحق " سعيد بمدرسة العهد الجديد الثانوية وهى نفس المدرسة التى التحق بها زميله " وليد ذاع صيته لنبوغه فى دراسته وتأجج موهبته الشعرية التى حققت له شهرة واسعة ، ورمقته عيون زميلاته بالمدرسة ولاسيما عيون " علا المنشاوى " ذات الجمال الطاغى وقد أخصته عنايتها واهتمامها ، أما هو فقد وجد فيها عوضا عن كل أوجه النقص الكامنة داخله والتصق بها رغم خجله الشديد ،ولم يعبأ بنظرات الغيرة المرسومة بوضوح داخل قلوب زملائه .
وما زال والده يقرع أذانه عندما طرق باب المنزل ذات ليلة وهو يصدر صوتا قويا كنهيق الحمار:
- يابت يا نعيمة .

أسرعت الحاجة " نعيمة " إلى الباب وفتحته على عجل خوفا من بطشه ، فدائما يده تسبق لسانه وأسرعت إلى الداخل عندما سمعته يصيح بصوته المحشرج وكأنه قد ابتلع ضفدعة من فوره ،

قائلا :
- أتفضل يا حاج " فتيحة " أدخل يا راجل أنت مش غريب

اقتاده " روينى البغل " إلى غرفة متهالكة الأثاث يعلوها التراب وعوامل الإهمال وما أن استقر بهما المقام حتى أسرع إلى زوجته تعلوه البهجة قائلا :

الحاج " فتيحة " الرجل الخليجى ده ، ما أنت عرفاه وشفتيه مرة قبل كده " طلب منى يد "روايح". ورمق "روايح " بطرفى عينيه دون اكتراث وكأن الأمر لا يعنيها ، وبادرها :

- طبعا الرجل عاجبك ، مافيهش عيب واحد ، أى بنت فى الدنيا تتمناه .
- ده سنه فوق السبعين يابا ، دا أكبر منك
- سبعين ولا تسعين ، هو انتى حاتشتريه .. أنا أديته كلمة وخلاص ، والفرح بعد أسبوع ، دا مش ها يغرمنا حاجة .

مضت عشرة أيام لم يذهب "سعيد " خلالها إلى المدرسة مما أثار قلق " علا " وبسؤالها علمت أنه يقضى يومه منذ الصباح الباكر وحتى مغيب الشمس بحظيرة المواشى المصلوبة على أطراف قطعة ارض زراعية تخصهم بجوار الكوبرى الجديد ، وتوجهت على الفور إلى هناك ووجدته يجلس مكوما فى ذهول وسط البهائم ، ووقفت أمامه متأملة بعض الوقت دون ان يشعر بوجودها فربتت على كتفه ، وما أن رأها أمامه حتى شب واقفا فى خجل باد وأدب جم واقبل نحوها ولكنه عاد وتسمر مكانه فجأة والتزم الصمت .

أدركت " علا " مدى الحزن الذى يعتريه وأرادت أن تخفف عنه فسألته :

ما بتجيش المدرسة ليه يا سعيد ؟

انهمك " سعيد " فى البكاء وعلا صراخه ونحيبه ، فأخذت تطيب خاطره وأمسكت برأسه ودفنتها داخل صدرها ، وأخذت تربت بيدها على ظهره وقد انتقلت إليها عدوى الكآبة الممزوجة بالوجد والشجن

بعد برهة ، أخذ " سعيد " يكفكف دمعه وبدأ حديثه المختلط بالبكاء .. المبلل بالدموع ، وبصوت مكلوم محشرج " مملوء بالألم والحسرة قال :

- روايح " أختى الطفلة الجميلة بنت الرابعة عشر زفت الى الكهل الخنزير صاحب السبعين عاما أو يزيد ... كانت دموعها تتساقط كقطرات المطر .. وتبكى بكاء يمزق نياط القلوب كانت تنظر إلىّ دون أن تنطق .. كان صوت صمتها يقرع أذانى .. التقت نظراتها بنظراتى .. لم أستطع الصمود .. هربت بعينى بعيداً عنها .. سمعت حوار عينيها تتوسل إلىّ أن أخلصها .. قالت عيناها ما لم تستطع شفتاها قوله .. استولى علىّ الجبن ولم افعل شيئا .. الجبن الذى زرعه أبى داخلى .. باعها أبى بقروش زهيدة .. سحبها الكهل كالشاه التى يقدمونها للجزار .. سارت دون مقاومة .. سارت وهى تعلم أنها ستذبح ...

أن نظراتها لى والتفاتها إلىّ أثناء اقتيادها لتنفيذ حكم الإعدام مزقت كيانى وأشعرتنى بالضآلة .

وأخذ يصرخ ويولول مردداً اسم أخته ، ولم تفلح محاولات علا " فى تهدئته فانهمكت تشاركه بكاءه ونحيبه .

عندما أنهى " سعيد دراسته الثانوية كان زميله " وليد " قد أنهاها كما أنهتها " علا " التى التحقت بكلية الإعلام ، أما " سعيد " و " وليد فقد اتفقا على دراسة القانون ، وتقدما لكلية عسكرية واجتازا الكشف الطبى والاختبارات الرياضية ومكثا ينتظران النتيجة

مرت الأيام وأعلنت الصحف ظهور نتيجة الدفعة الجديدة ، فأسرع الصديقان إلى هناك كان سعيد " يحدوه الأمل ، أما وليد فكان مملوءاً بالثقة يزهو فى خيلاء .

نجح " وليد القصير الهزيل ، ورسب " سعيد " برشاقته ووسامته وطوله الفارع ، ولم يشفع له مجموع درجاته الذى اقترب من الدرجات النهائية .

افترش " سعيد " الأرض وقد شعر أنها تتهاوى من تحته ، أحس أن رأسه غرست فى الأرض وان ساقيه مرفوعتان لأعلى يتخللهما هواء بارد ، أن وضعه الجديد بعد أن أصبح رأسه لأسفل جعله يرى الأشياء والمرئيات مقلوبة ، وجلس " وليد " بجانبه يواسيه ، ولكن كلماته لم تكن فى مستوى أذانه فلم يسمع منها حرفا واحدا وتلفت " سعيد " يمنة ويسرى يتفرس الوجوه ، ورآها جميعا مقلوبة ، وتاهت المعالم واختلطت الألوان وأصبح لا يدرى أوضعه هو الصحيح وهم الخطأ ، أم أن وضعهم هو الصحيح وهو وحده الخطأ ، تفرس الوجوه على اختلاف ملامحها وسحناتها .. وجه مسرور وآخر ترفرف الكآبة من حوله وتستقر على قسماته .. وتحجرت الدموع فى مقلتيه وكأنه دمية لا يعى ما يدور من حوله

عندما سمع طالبا يقص لزميله أن الكابتن " عنبه لاعب الكرة الشهير وعده بان يلحقه بتلك الكلية منذ كان يدرس بالصف الأول الثانوى حتى ولو كان بساق واحدة ، وعاد وأكد وعده أنه سيلحقه حتى لو كان مبتور الساقين ، وها هو قد أوفى بوعده بمكالمة تليفونية .. وذكر آخر بخيلاء أن الراقصة اللولبية " إغراء : التى تعمل شقيقته خادمة بإحدى فيللاتها أقامت له حفلا متواضعا يوم نجاحه فى الثانوية وهنأته لقبوله بالكلية وحددت له الجهة التى سيعمل بها بعد تخرجه فقد استضافت مسئولا كبيراً وانفردا سويا بحجرة نومها قرابة الساعة خرج بعدها هادئا وديعا يلبى كل ما يطلب منه .. وسرح " سعيد " بخاطره وقد تعلم قراءة الوجه بدلا من قراءة الكف .. لابد أن هذا من طرف الوزير السابق الذى يبدو متصابيا رغم شيبته يعتلى المناصب ، وتوقيع منه يحول الراسب إلى ناجح .. أما هؤلاء الباقون السعداء فإنهم حتما يمتون بصلة قرابة أو نسب أو حتى رابطة من روابط المصالح المتبادلة بواحد من قبيلة سيد قراره الذين يقبضون على زمام الأمور ويمسكون بكل خيوط اللعبة .. وهذا موسمهم .. والغريب أن السذج امثالى البلهاء من سكان الكفر ممن لايقدرون الأمور حق قدرها يلهثون ويصدقون ويسرعون الى جهات معروف مسبقا أنه لا مكان لهم فيها .

نهض " سعيد " واقفا وقد أيقن أنه استعاد وضعه الطبيعى فقد صارت قدماه راسختان على الأرض وهامته لأعلى ورأسه تستقر فوق جسده ، واخذ يفكر بصوت مسموع ويحدث نفسه فى ذل وانكسار ، هذا معه عنبه ، وذلك معه إغراء وذلك يسير مع الركب

ويسبح مع التيار .. أما أنا فمعى " دبور " وأخرج من جيبه جنيها باليا مهترئا هو كل ما معه واخذ يلوح به فى الهواء مردداً - يدوب يوصلنى فى القطار لغاية الكفر .

وعاد " سعيد " يتذكر أنه لم تمض سوى فترة وجيزة على زواج شقيقته " روايح من فتيحة " وسفرها معه إلى تلك الدولة الخليجية حتى عادت الى أهلها تجر أذيال الخيبة والندم ، فقد أساء معاملتها ، ولم يكتف بذلك بل كان يجبرها على معاشرة عدة رجال كل ليلة ويتقاضى هو ثمن استمتاعهم بجسدها الطرى .. بحجة تعويض ما دفعه لأبيها .. ولما رفضت فى أول الأمر أذاقها كل أنواع الذل والهوان حتى اضطرت للاذعان لكل متطلباته .. واعتادت على معاشرة كل من يستقدمهم من الرجال الذين أخذ عددهم يتزايد كل ليلة عن سابقتها .. واستمرت على ذلك حتى سنحت الفرصة فإغتنمتها وهربت بجلدها وعادت ..تبدو لمن يراها إنها مصابة بالكساح ، فقد تقوست ساقاها أو هكذا تبدو ... ان ساقيها قد تخاصمتا وشردت كل منها فى اتجاه .. تسير مفتوحة الساقين كالحمل الوليد الذى لا تقوى ساقاه على حملة .. تنظر بعيني جاحظتين ويخيل لى أنها لا تبصر بهما .. تنظر فى صمت ولا تتكلم .. وارتسمت خطوط الزمن على جبينها وقد ذبل لونها وتهدل صدرها وترهل جسدها .. إن الفترة الوجيزة التى عاشتها فى كنف فتيحة " ورفاقه صنعت بها ما لم تصنعه عشرات الأعوام فى سواها .. لقد جردها الكهل من إنسانيتها .. ان أصعب شيئ على النفس أن يجرد المرء من عاطفته ويجبر على تلبية رغبات الغير دون رغبة منه ... لقد جعلها كالآلة التى تدار

بالكهرباء بمجرد ضغط الذر دون أن تملك حق الرفض أو مجرد إبداء الرأى .. لقد جعلها هذا الوغد مجرد وعاء تفرغ فيه شحنات الرغبات المسعورة ممن لا يعرفون طعم الشبع ولا يقدرون معنى العفة والقناعة .. جعلها وعاء بلا روح أو إحساس .. عادت روايح تحمل غريبا فى أحشائها ... لو قدر لذلك الغريب الغير مرغوب فيه أن يخرج الى النور فستكون هى أمه .. أما أبوه فمن يكون .. لا أحد يستطيع أن يجزم ، حتى هى لا تعرف من رمى بتلك البذرة التى ستصبح نبتا شيطانيا .

أنكب " سعيد " على دراسته حتى حصل على ليسانس الحقوق بتقدير " ممتاز وكان ترتيبه الأول على دفعته ، وأخذ يمنى نفسه ويفاضل بين العمل بالتدريس داخل جدران الجامعة ومواصلة البحث والدراسة حتى الحصول على الدكتوراه ، وبين الانخراط فى سلك القضاء .. ولم يهتد لقرار يرضى طموحه فقرر أن يسلك المجال الذى يصله قرار تعينه أولا وطال انتظاره ولم يصله أية خطابات ولم تصدر بشأنه قرارات ، وعلم بالصدفة أنه تم تعيين من هم أقل منه تقديرا معيدين بالجامعة فقرر اللحاق بالخيار الثانى ، وتقدم بأوراقه .. واجتاز الاختبارات .. وانتظر النتيجة متيقنا أنه سيكون أول من يعين فلا يوجد من يطاوله تقديرا .

كالعادة جاءت النتيجة النهائية مدمرة ومخيبة للآمال .. لازمه النحس .. بل لازمه كل شيئ النجاح والتوفيق والخبر المبهج .. وتحطمت آماله على صخرة الواقع المر الأليم .. رسب بفعل فاعل .. تبخرت كل أحلامه .. أصبح كل ما يعنيه التوصل لسر استبعاده

بتلك القسوة والوحشية ..تعاطف معه أحد صغار المستخدمين وأخبره أنه غير لائق اجتماعيا .

وقف " سعيد يضحك فى ذهول ، اقتنع بسبب رسوبه .. لقد نهب " عنبة " حقه ونهبته " إغراء ، يبدو أن " عنبه " قد كبر وأينع وصار حدائق وبساتين وتشعبت جذوره وامتدت وضربت فى الأعماق .. وأن إغراء " قد اهتزت أردافها فى جميع الاتجاهات ونمت وترعرعت وأنبتت أردافا جديدة ونالت استحسان الرءوس الكبيرة التى بيدها الأمر والنهى .. ان عنبة و إغراء " وكل من على شاكلتهم كالمرض الخبيث يبدأ صغيرا فان لم يكتشف فى بداياته ينمو وينمو فى غفلة من الزمان حتى يستفحل ويتغلغل فى الجسد كله ويستعصى علاجه والبرء منه .

أنهت " علا المنشاوى" دراستها بكلية الإعلام .. ولنبوغها ومنزلة أسرتها العريقة عينت مذيعة بالقناة الفضائية التى كانت تتدرب بها وهى لا تزال طالبة ..

وتخرج " وليد وعين فى الجهة التى حددها .. التقيا صدفة فى احدى المناسبات وتكررت اللقاءات وتوطدت علاقتهما وتوجت بالزواج .

علم " سعيد بذلك الزواج الميمون " وجاء الخبر بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير فقبع فى أحد أركان حجرته المظلمة وقد جف عوده وذبل جسده وبهت لونه وفقد الرغبة فى الحياة واستمر على جموده لا يبدى حراكا ، وأيقن أن مماته خير له من حياته وامتنع عن

الطعام والشراب وأهمل زينته فبدأ أشعثا أغبر تعلوه أتربة القهر وتنبعث منه رائحة العرق العطنة الرطبة .. واستمر فى مخبأه لايرى النور ولا تراه الحياة .

فى يوم من الأيام وعقب عودته من السوق محدثا جلبة وصخبا كعادته دخل المعلم" روينى البغل " الحجرة التى يقبع بها ولده " ووجده ملقيا بأحد الأركان وقد اسند رأسه إلى الحائط فاقترب منه خلسة وركله بقدمه فى شقه الأيسر فكومه أرضا على شقه الأيمن وهو يثرثر

- ناموسيتك كحلى يا ابن " نعيمة العمشة " .

لم ينبس " سعيد " ببنت شفه ، ولم يعتدل فى رقدته أو يبد حراكا ، فأسرعت أمه واحتوته فى صدرها .. وسرعان ما أطلقت صرخة مدوية هزت أرجاء المكان .. لقد لفظ أنفاسه الأخيرة .. فارق الحياة .. فارقها فى صمت بعد أن عاشها على استحياء .

- عند غسله وجدوا فى طيات ملابسه ورقة موجهة الى الأستاذ " حامد أبو رية – مدرس العلوم بالمرحلة الإعدادية مضمونها : استاذى العزيز لا تعجب ولا تندهش .. كنت ضحية أبى سامحه الله .. ظلمنى وأساء معاملتى .. حرمنى من عطفه ومن كل شيئ .. ولم يكن هو الوحيد الذى ظلمنى .. لكن ظلمه كان وقعه أليما .. ظلمنى أناس كثيرون .. أخذوا حقى ومنحوه لغيرى اغتالوا أحلامى وأفتوا طموحى .. ضربونى فى مقتل .. افقدوني الرغبة فى الحياة .. والحياة لم تعد تعبأ بأنات الفقراء أو همسات الضعفاء فقد أصمها ضجيج المادة وسطوة أصحاب النفوذ من ذوى الضمائر الميتة نزف قلبى وانعدم الأمل فى الشفاء وأيقنت أن القلوب لم تعد تلين بانسكاب الدموع

فحبست دمعاتى .. وان الحقوق المنهوبة لن تعود بالأنين فكتمت أناتى .. عندما تصلك تلك القصاصة سأكون قد تركت الحياة متوجها للآخرة وعزائى الوحيد أن يعوضنى الله كل ما سلب منى فى تلك الدنيا .. استحلفك بالله أن تصحب معك كل من تجد لديه بقية من ضمير ، وكل من يحمل بين جنباته قلبا لا يزال ينبض بحب الخير ويتمسك بالقيم .. اصحب كل هؤلاء وابحثوا عمن هم: " سعيد الروينى وما أكثرهم فى هذا الزمان وخذوا بأيديهم .. اعلم أنها مهمة شاقة وربما مستحيلة .

لم يمهله القدر حتى تصل قصاصته للأستاذ :حامد أبو رية وفاضت روحه إلى بارئها .